وقد لا يخفى ما جرى من الكروب والمحن علينا فأقول أن فى سنة 1283 الموافقة لسنة 1866 م مسيحية وفى السنتين اللتين بعدها أيضا أعني سنة 84 أربع وثمانين وسنة 85 خمسة وثمانين المطابقة لسنة 1868 م مسيحية .

وقعت مجاعة عظيمة ، وقحط فى السنين الثلاث ببلد قسنطينة وسائر وطنها وأعظمها بأسا السنة الوسطى .

سببهـــا :

الجائحة والجراد وغيرهما حسبما يأتي تفصيل ذلك ، ولا يشك أحد فى أنها مجاعة شديدة أشرف الناس فيها على الهلاك الأليم ، والبلاء العظيم بحيث أنه لم يسمع فى الزمان السابق بمثلها قط ، وأن كل من أدركها من الناس الكبار المسنين فى الأعمار ، ودرى ما قد حصل فيها لضعفاء عامة الخلق ، بل والى كثير من خواصهم أيضا بادية وحاضرة من التشتيت والفناء وأكلهم للحشيش ونحوه ، يقول : ما هي الا مجاعة سوداء لم نر فى الزمان السالف أقبح وأفضح منها ، وليس الخبـر كالعيان .

فان الجل الكثير من أولئك المصابين صاروا يقتاتون ما لا يبـاح اقتياته ، فتراهم يزدحمون على الوصول الى هر ودم وميتة وغير ذلك من الأمور المحرمة شرعا ، المستقذرة بالنظر للانسان عقلا وطبعا ، لكون النفس لا تستطيع مشاهدة ذلك فضلا عن أكله ، والحال فان ضررها فادح قد شمل كل انسان كما لا يخفى ، فالغني منهم أفقرته ، وصيرت أحواله ضيقة حرجة جدا ، والضعفاء قد أهلكتهم فى حينهم ودمرتهـم تدميرا كأنهم لم يكونوا بالأمس ، وما ترك الزمان من بعدهم اذ ذاك الا مراسم ديارهم خالية خاوية وذلك هو البلاء العظيم وكفى شاهدا على كون تلك المجاعة سوداء وعظمى ان اسمها لازال فى الخلف ساريا

الى يومنا هذا لم ينقطع عنهم وأحوالهم لم تعتدل منذ حلت بهم الى الآن ، والحق مع من قيل فيها سوداء أي مظلمة ليس فيها رحمة للخلق، وصح ذلك منه باعتبار المشاهدة فى الأمور الشديدة الواقعة بالانسان فى هذا الزمان ، لأن الشر اذا تأملته تجد فيه أوصافا متفرقة ، وهاته المجاعة التي حلت بنا السنة المذكورة وما بعدها قد أتت بأنواع مترادفة حاوية لجميع الشرور وعمت سائر المكولات والمشروبات بغلاء زائد فى أسعارها كلها فكانت سببا فى اتلاف مال الانسان عليه حتى صيرته فى الفقر الفادح من أجلها ، وأعجزته عن تحصيل قوت نفسه وسيأتي الكلام عن تفصيل ذلك فى محله .

فاقول اولها الجائحة :

أ ــ فانها قد أفسدت الزرع ، وأعدمت حصاده برا وشعيرا مع سائر المزارع والنباتات بأسرها بحيث لم يبق للفلاحين مطمع فيها البتة .

ب ــ وتاليها المواشي ، من بقر وغنم وبهائم فانها قد اتلفتها الرهمة الواقعة فى السنة الثانية ، وهي سنة 1284 هـ . 1867 م ، وسببها من أجل انقطاع ما يدخر لها فى مصيف تلك السنة من علف وتبن وقرط لتبقتات منه فى فصل الشتاء ، حتى لم يبق منها الا القليل جدا ، مع أن الحراثة فى تلك السنة ضعيفة أيضا لما فيها من الكلفة والمشقة على الفلاحين ، مع عدم وجدان حبوب الزراعة والمواشي فى تلك السنتين اللتين قبلها حسبما تقدم ذكره آنفا .

فثبت الآن وترجح بحسب ما سطر ، أن الجائحة المزبورة ؟ المذكورة والجراد قد نشأ منهما ضرران انعدام الزرع ، وموت المواشي ، بحيث لم يبق للناس اذ ذاك شيء يتعاملون به ، أو يستمدون منه عند الحاجة الا من أسلمه تعالى ، وذلك نادر قليل ، والنادر لا حكم له .

وخامسا غلاء الأسعار ، فى السنين الثلاث المتقدمة فى سائر الحبوب والأقوات المطبوخة وغير المطبوخة ، مع عدم الدراهم بأيدي الناس وقتئذ ، وقل البيع والشراء اذ ذاك وكيف يوجد ذلك ، وبما يكون وينتج مع أن البيع لا يأتي الا من محصولات الكسب كما لا يخفى ،

حيث أن الكسب طرأ عليه العدم والفناء كما تقدم ، زادت المصيبة على أهله بأضعاف وألواع متنوعة لا يحصيها الفكر و لايثبت لها العقل ، وآل بهم ذلك للسيبة والفناء لامحالة ، وربما أكل بعض الناس بعضا وقتئذ .

ولولا فضل الدولة الفرانسوية ، وتعطفاتها الخيرية واحسان ولاتها على كثير من الخلق بسلف الحبوب ونحوها لضاع الناس بأجمعهم ، أو يحل بهم مثل ما حل ببلد تونس وأهل وطنها لامحالة فانه يحكى عن المجاعة التي أصابتهم وقتئذ ما يضيق الصدر منه ولا يمكن لذوي كبد حنين أن يسمع ما جرى فيها ، اذ ما وقع عندنا بالنسبة اليهم يكون عشرا لهم والله أعلم .